على هامش مهرجان الموصل

لنستمع الى صوت أبي تمّام !

بقلم رجاء النقاش

كان مهرجان أبى تمام الذي اقيم في الموصل عملا ثقافيا ناجحا بلا شك ، فمن اجل احياء ذكرى ابى تمام اجتمع عدد كبير من الكتاب والمفكرين من ذوي الاتجاهات والمدارس المختلفة ، كما تم اعداد تمثال لابى تمام ليقام في احد الميادين العامة بالموصل .

وهذا التكريم من جانب العراق لابى تمام هو تكريم يستحق التقدير ، وهو من ناحية اخرى نوع من الدعوة الى احياء تراثنا بصورة جادة وحقيقية ... اننا نتحدث كثيرا عن التراث ، ولكننا نسعى في الواقع العملي الى تحنيط هذا التراث ووضعه في متاحف يزورها العابرون بين حين وحين ، ولكننا لا نعامل التراث معاملة سليمة بمد خيوط حية بيننا وبينه ، واختيار الباقي من هذا التراث لمزجه مزجا سليما بعصرنا ومشاكلنا وظروفنا المختلفة . اننا نجد في ميادين العواصم العربية المختلفة كثيرا من التماثيل لرجال السياسة والاقتصاد بل وبعض الشخصيات الاجنبية ولكننا لا نجد تمثالا لفنان عربي كبير قديما كان او معاصرا الا في القليل النادر . ولست بحاجة الى ان اقول ان هذا الموقف ليس الا نوعا من مرض شهير يسود الحضارات في عصور تخلفها واضطرابها ، وهو ان يمتلىء انسان تلك الحضارة بالاحتقار لنفسه واضطهادها والنظر الى كل ما يتصل بذاته نظرة استخفاف واستنكار ، بل ان انسان هذه الحضارة المضطربة المتخلفة يكون في العادة جاهلا بنفسه ، سواء ما كان يتصل بماضي هذه النفس ، او بحاضرها . ولا يستطيع احد ان ينكر ان النفسية العربية تعاني من هذا المرض نتيجة لعصور متتالية من التخلف الحضاري الذي أفقدنا الثقة في انفسنا وفي كل ما يتصل بنا من تراث حضاري . واذا حاولنا ان نقوم بدراسة بسيطة للجيل الجديد من المثقفين لوجدنا منهم انصرافا عن التراث العربي ورفضا له واستنكارا كاملا لما فيه من فكر وأدب وشخصيات بارزة . ولست اشك في ان الاجيال الادبية الجديدة في حياتنا العربية قليلة العلم بأدب ابي تمام والمتنبي وابى العلاء . وهي اكثر من ذلك تحمل في اعماقها نوعا من الرفض الكامل لاي اهتمام بمثل هؤلاء الفنانين والادباء الذين يملكون لحظات مضيئة مشرقة في تاريخنا الادبي والفكري . ولا شك ان التراث العربي فيه كثير من الصفحات المليئة بالاضطراب والارتباك والثرثرة ، وان العرب لن يخسروا شيئا اذا ما أحرقوا مثل هذه الصفحات والقوا بها في البحر ... ولكن التراث العربي من جانب آخر يضم صفحات مشرقة حارة مليئة بالتجربة الانسانية العالية والعمق الفكري والاصالة ... وهذا الجانب الخصب من تراثنا هو ما يستحق البقاء والاهتمام ... وهو ما يستحق ان ننفض عنه الغبار ونخرج به الى النور والحياة ، ونربط بينه وبين واقعنا الحقيقي الذي نعيش فيه ، ولا يكفي اطلاقا بالنسبة لهذا التراث ان نجعل منه مادة للدارسين المتخصصين في الجامعات ، يدرسونه على مضض في قاعات البحث المغلقة ، فاذا اخرجوا الى الحياة العامة نفضوا ايديهم منه وتنكروا له وخجلوا منه وأخفوا معرفتهم به امام الحياة العامة . ان مثل هذا الموقف خطأ في خطأ ، لاننا يجب ان نجعل من تراثنا الاصيل حياة حقيقية متصلة بحياتنا العصرية .

وليأذن لي القارىء الكريم في أن استطرد قليلا في الحديث عن موقفنا من التراث لاقول : ان الحضارة الغربية التي هي نموذج الحضارة العصرية المتقدمة تنظر الى الماضي نظرة احترام عميق ، وتهتم بكل صغيرة او كبيرة تتصل بالثقافات او الفنون القديمة ، حتى لقد اصبح معروفا عند الدارسين المعاصرين ان الحضارة الغربية المعاصرة انما تقدم على ثلاث اسس رئيسية الاولى هي الثقافة اليونانية والثانية هي المسيحية والثالثة هي العلم والاساس الاول وهو الثقافة اليونانية يمثل الاهتمام العميق بالماضي واحترامه واحياء ما فيه من فكر وفن . والاهتمام بالثقافة اليونانية يحمل معه دائما اعمق الاهتمام بالتراث القديم في الحضارة الغربية في كل المراحل والعصور ، وما الثقافة اليونانية ، الا رمز لهذا التراث القديم لانها أخصب مرحلة من مراحله وأهم أصل من اصوله .

ويخطر على بالي وأنا أكتب هذه الكلمات الاحتفال السنوي الكبير الذي تقيمه انجلترا في ذكرى شيكسبير، حيث يتم تقديم مهرجان عظيم للفن والفكر في مسقط رأس شيكسبير ، ويتحول هذا المهرجان كل عام الى عمل مؤثر حي في ميدان الفن والفكر يشترك فيه كثير من اصحاب العقول الكبيرة في شتى أنحاء العالم . ونحن

نعرف أيضا ما تبذله اسرائيل لاحياء تراثها الفكري والادبي ولقد ركزت اسرائيل في السنوات الماضية على أديبها المعروف « يوسف عجنون » ، وكان ابرز شيء في « عجنون » من وجهة النظر الاسرائيلية هو انه في كتابته مرتبط أشد الارتباط بتقاليد اللغة العبرية القديمة والفكر العبري القديم .

على ان هذه الدعوة الى احياء التراث العربي ، والجانب المشرق فيه على وجه الخصوص ، لا تعني ابدا ، ان نستسلم لهذا التراث ، ونأخذه كما اخذه القدماء ، وننظر اليه بعيونهم ، فمثل هذا الموقف لا يمكن ان يعني في نهاية الامر الا نوعا من تكرار نسيج قديم في الثقافة والحضارة ، والتكرار هو نوع من الجمود الفعلي والعبودية الفكرية .... وليس في جمود العقل او عبودية الفكر اي نوع من الجدوى على الحضارة او الانسان .

ان المطلوب هو ان ننظر بعيوننا العصرية الى تراثنا القديم حتى نستطيع بذلك ان نراه في ضوء جديد ، وحتى نستطيع ان نجد ما يفيدنا وما يضيف الينا . وأعود هنا الى نموذج شيكسبير حيث يحاول المخرجون المسرحيون والسينمائيون والنقاد الانجليز ان يقدموا دائما تفسيرات عصرية جديدة لشيكسبير سواء كان ذلك عن طريق العروض المسرحية او السينمائية او عن طريق التفسير النقدي الخالص . واذكر في هذا المجال مسرحية من مسرحيات شيكسبير هي « تيمون الأثيني » ، و «تيمون» هو نموذج للانسان الذي يمد يده بالخير لجميع البشر ثم يكتشف في آخر الامر ان هؤلاء البشر مليئون بالشر فينسحب ليعيش وحيدا في غابة الطبيعة بعيدا عن غابة البشر . وبعد سنة ١٩٥٦ قدم احد المخرجين الانجليز هذه المسرحية في مهرجان شيكسبير السنوي ، ولكنه قدمها بتفسير جديد من وجهة نظره ، فقد تراءى لهذا المخرج ان « انجلترا » هي تيمون الاثيني ، وذلك بعد حرب السويس سنة ١٩٥٦ ...

فقد دخلت انجلترا حرب السويس وخرجت منها وحيدة معزولة ... كانت انجلترا تمد يدها بالخير للجميع وبعد حرب السويس تخلى عنها الجميع ... فأصبحت وحيدة منعزلة تشكو جراحها وبلواها بعيدا عن الجميع . هكذا فسر المخرج الانجليزي مسرحية « تيمون الاثيني » واعطاها معناها العصري الجديد ، وهو معنى خاطىء لا نملك الا ان نرفضه ونستنكره لاننا نعرف بكل وضوح من خلال تجربتنا السياسية والحضارية ان انجلترا لم تكن في تعاملها معنا صاحبة رسالة بقدر ما كانت قوة استغلالية ظالمة ، كما ان حرب السويس لم تكن من أجل دعوة عادلة بقدر ما كانت حربا على الحق والعدل والحقوق الانسانية السليمة ولكن الذي يهمنا هنا هو أن الغربيين يحاولون دائما ان يفسروا ادبهم القديم تفسيرا عصريا يخطئون في بعضه أحيانا ، كما اخطأ هذا المخرج الذي أراد لشيكسبير ان يكون خادما للاستعمار الانجليزي ... ولكنهم يصيبون احيانا كثيرة في هذه المحاولة التي تضيء أدبهم القديم اضاءات عصرية وتعطيه قدرة على ان يضيف للعقل الجديد مزيدا من القوة والعمق .

وهذا هو ما نحتاج اليه في موقفنا من التراث الذي يستحق ان يعيش بيننا ويستمر ... بل انني أقول اكثر من ذلك ان « العصرية » هي المقياس الصحيح الذي يمكن ان نفرق به بين الاصيل من تراثنا والزائف من هذا التراث ، واعني بالعصرية : أن كل « تراث » يمكننا ان نحييه على ضوء فكرنا الجديد ويمكننا ان نجد فيه ما يضيفه الينا ويعلمه لنا هو تراث جيد ويستحق البقاء ، اما اذا استعصى هذا التراث على العصر الذي نعيش فيه ولم يعطنا شيئا ولم يستطع ان يفتح لنا أسراره بمفاتيحنا العصرية الجديدة ... مثل هذا التراث هو ـ في اعتقادي ـ تراث لا يستحق الحياة ولا يستحق منا أن نذرف عليه دمعة واحدة اذا احترق ، او غرق في البحر فالحقيقة ـ في نهاية الامر ـ هي ان الفنان او المفكر الكبير يخاطب كل العصور ، بنفس القوة والصدق الذي يخاطب به عصره ، ولست اشك مثلا في ان عصرنا الراهن ما زال يستمع الى صوت أفلاطون وارسطو وديكارت كما يستمع الى صوت هيجل وماركس وسارتر وماركوز . ولست اشك في ان عصرنا ما زال يستمع الى صوت سونوكليس وشيكسبير كما يستمع الى صوت تولستوي وتشيكوف وكازانتزاكس . ولست اعني بذلك اننا نوافق تلك الاصوات القديمة في كل شيء بل على العكس قد يكون استماعنا الى تلك الاصوات عن طريق الصراع معها والحوار والاختلاف ، ولكن المهم أنها ما تزال أصواتا مسموعة بالنسبة لعصرنا ، وهي من أجل تراث قديم ومعاصر في نفس الوقت ، وهي من أجل ذلك ايضا ما زالت تملك القدرة على مخاطبة العصر والدخول معه في حوار عميق .

واريد ان انتقل من هذه النقطة بالذات ، واستخدم هذا المقياس بالتحديد في تسجيل بعض الملاحظات حول شخصية أبي تمام بهذه المناسبة الناجحة الممتازة ، وهي مهرجان ابي تمام الذي انعقد في الموصل في الشهر الماضي ... وأعتقد اذا كانت المقدمات السابقة أكثر مما ينبغي واود ان تكون قد أبعدتنا عن ابي تمام وقضيته .

أريد ان أسأل : هل يعطي ابو تمام لعصرنا الراهن شيئا ؟ اذا كان يعطي لعصرنا شيئا فهو اذن فنان يستحق الحياة والبقاء ، وان كان لا يعطي فهو ـ في تقديري ـ يستحق النسيان والموت والاحتراق بلا حزن عليه ولا رثاء

واسارع فأجيب على هذا السؤال : ان أبا تمام يعطي لعصرنا اشياء كثيرة ، ويضع امامنا مشاكل رئيسية وحلولا لبعض المشاكل الرئيسية ومن اجل هذا فهو يستحق البقاء الى اليوم والى الغد وما بعد الغد ، ويستحق منا ان نهتم به ونحتفل بذكراه ونقيم له التماثيل ونسمي الشوارع والميادين باسمه ونكون بذلك قد أعطيناه بعض حقه .

فماذا يقول أبو تمام لعصرنا وماذا يعطي ابو تمام

لهذا العصر ؟ .. سأحاول في السطور التالية ان الخص ما ارى ان ابا تمام يعطيه لعصرنا ويقوله لهـذا العصر ، مؤمنا بأن مثل هذا التلخيص يحتاج لمزيد من التفصيل الدقيق والبحث العميق ... وما السطور التي أحدد بها هنا علاقة ابى تمام بعصرنا الا مشروع دراسة يجب ان تكون اطول واشمل واعمق .

وأول ما أرى ان ابا تمام يقوله لعصرنا هو ما يتصل بقضية « الشعر والتجربة الانسانية » . ان أبا تمام يقدم نموذجا حيا للفنان الذي رفض العزلة عن مجتمعه واندمج في هذا المجتمع وعاش بتجاربه الواسعة وارتبط بالتيار العنيف للحياة في هذا المجتمع . لقد ولد بالشام ، وقضى عدة سنوات في مصر ، وسافر الى بغداد وغيرها من مناطق الحضارة الاسلامية المختلفة ، واستقر في آخر عمره بالموصل حيث عمل فيها واليا على البريد ومات ودفن هناك . هذه اذن حياة غنية خصبة ، حياة لم تعرف الانطواء والعزلة والانفصال عن العالم الذي كان يعيش فيه ذلك الفنان الكبير ، وأبو تمام بمثل هذه التجربة الواسعة يمثل موقفا نظريا واضحا محددا وهي ان الشعر ينبغي ان يرتبط اعمق الارتباط بالتجربة الحية والا يقف ابدا عند التأمل الذاتي والتجريدي البعيد عن الحياة ، قد يقال ان مطالب العيش هي التي دفعت أبا تمام الى الرحلة والتجول والانتقال من مكان الى مكان ، ولكننا نجد في حياة ابى تمام لحظات عاش فيها مستقرا أشد الاستقرار ولكنه مع ذلك آثر الرحيل لانه لم يكن يبحث عن الاستقرار وانما كان يبحث عن « التجربة » والمعرفة والاستيعاب والشمول . فأبو تمام قد عاش بالشام سعيدا عالي الصوت واسع النفوذ في مجتمع تلك البلاد ولكنه مع ذلك لم يستقر بالشام بل ظل يتنقل ويرحل من مكان الى مكان يقوده نوع من القلق الخصب الذي يدفعه الى اكتشاف المزيد من حقائق العالم الذي كان يعيش فيه . ويحدثنا الدكتور طه حسين عن أبى تمام ومكانته في الشام وذلك عندما كتب عن البحتري وصلته بأبي تمام.. يقول طه حسين :

« ولد البحتري في أوائل القرن الثالث الهجري سنة خمس أو ست ومائتين ولما شب اتصل بأبى تمام ، وكان أبو تمام قد عرف واشتهر أمره ، وكان له مجلس في حمص حينما كان يتصل بأهل حمص ، فكان شعراء حمص يأتونه فينشدونه أشعارهم ، وكان البحتري من الذين أتوه وانشدوه ، سمع له أبو تمام وأعجب به واظهر الرضا عنه ، فلما انصرف الشعراء استبقى البحتري وقال له : أنت أحسن من أنشدني فحدثني عن حالك ، فشكا له البحتري فقرا وسوء حال ، فكتب له أبو تمام كتابا الى اهل معرّة النعمان ينبئهم ان هذا الرجل ،او هذا الشاب نابغة بارعة في الشعر ، ويوصيهم به خيرا ، فلما قرأوا الكتاب عنوا بالشاعر وجعلوا له مرتبا قدره أربعة الاف درهم كل عام » « طه حسين ــ من تاريخ الادب العربي ــ المجلد الثاني ــ ص ٣٥٥ ــ ٣٦٦ » .

وهكذا نجد ان ابا تمام كان قد حظي في الشام بمكانة كبيرة ، بحيث كان الشعراء يقصدونه ، وبحيث كان يستطيع ان يضمن بكلمه منه « مرتبا قدره اربعة الاف درهم كل عام » لشاعر مجهول ناشىء في ذلك الحين هو البحتري . ولكن أبا تمام مع كل هذه المكانه بالشام وكل هذه السمعة وهذا النفوذ لم يبق بالشام وانما ترحل وأخذ ينتقل من مكان الى مكان طالبا ان يتعرف الى حدود العالم الذي يعيش فيه بقدر ما يستطيع ... فالتجربة الواسعه والمعرفة العميقه هما غايته وليس المال او الاستقرار او البحث عن الشهرة او النعمه والهدوء والاستقرار . وهناك أبيات ثلاثه مشهورة ومتعرفه لابى تمام يمثل فيها حنينه الدائم الى الرحله وانتماءه الى الى عالم واسع شاسع متنوع ولهفه الى البحث والمعرفة والاستيعاب ... وهي ابيات جميلة رائعة انقلها من كتاب الدكتور طه حسين عن الادب العربي .

البيت الاول :

بالشام اهلي وبغداد الهوى وانا
بالرقمتين وبالفسطاط اخواني

البيت الثاني :

وما اظن النوى ترضى بما فعلت
حتى تبلغني أقصى خراسان

البيت الثالث :

خليفة الخضر ، من يربع على وطن
في بلده فظهور العيش أوطاني

في هذه الابيات جميعا ترى ان الرحلة والتجربة الواسعه والاستيعاب للعالم الذي يحيط بالشاعر هي أساس حياته ، وفي البيت الاخير بالذات يقدم لنا الشاعر صورة بالغة الجمال حيث يقول انه « خليفة الخضراء » والصورة الدينية المعروفة للخضر هي التنقل الدائم والتجدد الدائم ، والرحلة من مكان الى مكان ومن زمان الى زمان ، ثم يقول الشاعر في صورته الرائعة «انظهور العيس اي الجمال ــ هي أوطانه » ... أي أن الرحلة المتصلة هي وطنه الدائم ، بينما الاقامة بالنسبة هي استثناء عارض . ونحن نلاحظ هنا ان ابا تمام في حديثه عن رحيله الدائم لا يشعر باي مرارة ولا يعبر عن احساس باليأس او الحزن بسبب اضطراره الى الرحلة الذاتية مما يؤكد ان هذه الرحلة الدائمة كانت رغبة من رغبات ابى تمام وكانت هدفا من أهدافه ومطلبا من مطالبه ، وأنه أن لم يكن سعيدا بذلك فهو على الاقل غير متألم أو مستنكر لهذا الاسلوب من أساليب الحياة . ومن ناحية اخرى فباستطاعتنا ان نلاحظ ان « الرحلة » في عصر ابى تمام « القرن الثالث الهجري » كانت مصدرا أساسيا من مصادر المعرفة والثقافة ، ففي ذلك العصر لم يكن هناك وسائل اتصال ضخمة مثل الوسائل الموجودة حاليا كالتلفزيون والراديو والسينما والصحف ووكالات الانباء بحيث أصبح الانسان الان يستطيع ان يستوعب العالم ويعرف ما يدور فيه بقدر لا بأس به وهو في بيته ...

لا يتحرك ولا يسافر . ولكن الرحلة في المجتمعات القديمة كانت من أكبر وأعمق مصادر الثقافة والمعرفة الانسانية وتستحق فكرة « الرحلة كمصدر للثقافة في العصور القديمة » دراسة واسعة مستقلة ، ولعلنا نذكر في هذا المجال ان رحلات العرب قبل الاسلام الى خارج الجزيرة كانت مصدرا رئيسيا للتيارات الثقافية التي هبت على الجزيرة من خارجها . بل لقد تفتح وعي النبي العربي العظيم محمد «ص» على رحلته الى الشام في بداية حياته

وهكذا فقد أعطانا أبو تمام اجابة رائعة لمشكلة العلاقة بين « الشعر والتجربة الحية » ... وهذه الاجابة المحددة الواضحة هي الدعوة الى الربط العميق بين فن الشعر وتجربة الحياة باوسع معاني هذا الارتباط ، وهو موقف يرفض تماما ان يكون الشاعر متفرجا على الناس وان يكون الشعر ثمرة للتأمل والخواطر الذاتية والسلامة والعافية بالنسبة لتجارب الدنيا وأخطار الحياة .

القضية الثانية التي يقدم فيها أبو تمام اجابة عصرية هي قضية « الشعر والثقافة » فقد ربط ابو تمام بين الشعر والثقافة وبرباط رائع وعميق ونحن لا نجد هذا الرباط القوي لدى شاعر قديم آخر مثلما نجده عند ابي تمام . ومن بعد ذلك في المعري ، ولاشك ان موقف ابى تمام من الثقافة هو رد واضح ومحدد على دعاة الشعر الخالي من الفكر ، والذين يرون في الشعر مجرد تأملات عامة ويرون فيه نوعا من الجمال الذي ليس من الضروري ان يضيف للعقل شيئا، بل يكفي ان نحس بالمتعة الفنية فيه وحسب . ولقد كانت حياة ابى تمام تغري الفنان المتوسط بالاكتفاء بما فيها من تجارب غنية ورحلات عديدة واسعة كمصدر من مصادر الفن الشعري ... ففي حياة ابى تمام من التجارب ما يغنيه — لو كان شاعرا متوسطا — عن طلب الثقافة والمعرفة في الكتب ، وعن العكوف الطويل على هذه الكتب بعمق وامانة واستيعاب، ولكن ابا تمام كان يبحث عن أعمق المنابع وأصفاها لكي يصل في آخر الامر الى الشعر الرفيع ، ولذلك كان قارئا نهما ، وكان يعرف ان الثقافة الكبيرة لا غنى عنها اذا اراد ان يصل الى الشعر العظيم ... يقول الدكتور طه حسين عن ثقافة أبى تمام :

« لم يكن حافظا للشعر أو راوية له ، كأبى نواس ولم يكن راوية منطلقاللرواية والانتحال كخلف ، ولكنه كان حافظا وكان كثير النظر في الشعر ، ميالا الى الاختيار منه لم يكن اذن يحفظ ويكتفي بالرواية ، وانما كان يعاشر الشعراء معاشرة متصلة ، يقرؤهم ويطيل النظر فيهم ، ويدل على قراءته لهم هذا الاختيار الذي كان يختاره في كتب يذيعها بين الناس ، ولابي تمام كتب كثيرة اظنها ستة كلها مختارات فمنها الحماسة ، واختيار من شعراء الفحول ، واختيار من شعراء القبائل ، واختيار من شعراء المحدثين .تحدثنا الاخبار ان ابا تمام قداختار كل هذه الكتب لانهاضطر للبقاء في همذان ، فقد حال الثلج بينه وبين المضي في سفره . فاضطر الى البقاء وعكف على خزانة للكتب فانفق وقته في تصنيف ما ظهر له من المختارات ، ولكن هذا غير ممكن وغير معقول ، فقد كانت اقامته رهن زوال الثلج ،وهذا لا يتجاوز الاشهر القليله ومن المستحيل ان يصدق انه قد اختار هذه الكتب في شهرين أو ثلاثة » « طه حسين — من تاريخ الادب العربي ص ٣٤٣ — الجزء الثاني » .

ولقد شن النقاد القدماء حملة عنيفة على أبى تمام واتهمه البعض بانه كثير السرقة من غيره لانه كان واسع الثقافة والمعرفة بأدب الاخرين . ولسنا في مجال الدفاع عنه ضد هذه التهمه ، ولكن هذه التهمة نفسها تثبت ما نقول من أن أبا تمام كان واسع الثقافة بمقاييس عصره ، فقد اهتم كثيرا بتثقيف نفسه تثقافة أدبية عاليه . ولكنني اعتقد ايضا ان ثقافته قد امتدت من الادب الى غيره من الوان المعرفة مثل الفلسفة والتاريخ وما الى ذلك ، فقد كان ابنا لعصر ازدهرت فيه الثقافة العربية وتنوعت أصولها وثمارها واتصلت في هذا العصر بثقافات عريقة ، مثل الثقافة اليونانية والثقافة الفارسية . واذا كانت مختارات ابى تمام وما أخذه عليه النقاد القدماء من سرقات يدلان على سعة الاطلاع والثقافة الادبية عنده ، فان تركيب قصائده وصوره الفنيه المعقدة الصعبة لا يمكن ان يصدر شيء منها الا عن عقل كبير صقلته ثقافةواسعه في مختلف الوان المعرفه . وهكذا نجد ان أبا تمام يؤكد لنا من خلال موقفه الفني ان ارتباط الشعر بالثقافة قضية ضرورية واساسية . وموقف ابى تمام هو رد على كل الدعاوي التي ترد الشعر الى مجرد الفطرة والبديهة التلقائيه او ترده الى مجرد التجربه الحيه فقط ، او التي تطلب من الشاعر ان يحقق مجرد الجمال الفني في قصيدته ، واذكر في هذا المجال شاعرا عربيا كبيرا ومعاصرا لنا كان يقول دائما انه لا يقرا لانه يكتفي بجذوة الالهام المشتعلة في داخله . والواقع أن هذا الشاعر يمثل في موقفه من الثقافة وارتباطها بالشعر نوعا من الرأي السائد في حياتنا الادبية وهي ان الشعر والفن عموما ليس من الضروري ان يرتبطا بثقافة واسعة وكبيرة ، وان الالهام والموهبة كافيان في هذا المجال . ولعلي لا اكون مخطئا اذا قلت ان من اكبر عيوب الشعر العربي المعاصر في كثير من الاحيان هو : ضعف الثقافة وانخفاض مستوى التجربة الثقافية عند الشعراء ، اما الشعراء المعاصرون الذين حققوا شيئا باقيا له قيمة فهم ولا شك الشعراء المثقفون ذوو الموهبة الاصيلة والعقول المستوعبة الكبيرة .

ولعلنا نستمع الى صوت ابى تمام يأتينا من وراء العصور ليؤكد لنا انه لا يمكن ان يولد شعر عظيم بدون ثقافة عظيمة .

القضية الثالثة التي يثيرها ابو تمام اذا تأملنا في شعره وشخصيته هي قضية التجديد .. فهو شاعر قد رفض الانسياق وراء القديم واراد ان يحقق لنفسه شخصية خاصة ورؤية مستقلة واسلوبا يخرج تماما على

تلك الأساليب البسيطة الساذجة المعروفة في الشعر العربي القديم ، ان صورة مليئة بالتركيب والتعقيد ، وهي صور جديدة خاصة به ، لم تكن مألوفة في عصره ، ولا قبل عصره ، ونحن نجد على سبيل المثال تلك الصورة الشهيرة عند الشاعر العربي القديم حيث كان يصور الانسان « الحكيم » بانه كالجبل الراسخ الثابت في الارض والذي لا يتأثر بالاحداث الخارجيه تاثرا سريعا ولا يهتز لها بسهولة ، ولكن ابا تمام قدم لنا صوره اخرى مختلفه تماما هي صورة الانسان الحليم الذي يشبه « البرد الرقيق الحواشي ... وهي صورة جريئة وذكية وحساسة .. يقول ابو تمام :

رفيق حواشي الحلم لو أن حلمه
يكفيك ما ماريت في أنه برد

هذه الصورة الجديدة يقول عنها احد النقاد القدماء كما يروي لنا الدكتور احسان عباس في كتابه الممتاز عن تاريخ النقد الادبي عند العرب « ص ١٤٨ » ... يقول هذا الناقد القديم عن بيت ابى تمام : « هذا البيت اضحك الناس منذ سمعوه الى هذا الوقت » ... اي ان جرأة ابى تمام كانت تحديا للذوق العربي السائد وفتحا لرؤى شعرية جديدة على ان المسألة لا تقف عند حدود الصوره الجزئية وتجريدها ، فالنسيج الشعري كله عند أبى تمام هو نسيج جديد تماما على القصيدة العربية ، وابرز شيء في هذا النسيج انه تخلص من التعبير السهل السريع المباشر وقدم نسيجا آخر يحتاج الى كثير من الفكر والعمق حتى يمكن فهمه وتذوقه . وبسبب هذه القصيدة الجديده الجريئه المتحدية للذوق السائد عند ابى تمام هاجمه النقاد العرب القدماء هجوما عنيفا حتى اتهمه بعضهم بأقسى ما يمكن ان يتهم به انسان في المجتمع الاسلامي القديم ... وتلك هي تهمه « الكفر » والخروج على الدين ، ويقول الناقد العربي القديم « الصولي » « عن كتاب تاريخ النقد عند العرب للدكتور احسان عباس ص ١٥١ » :

« وقد ادعى قوم على ابى تمام الكفر وجعلوا ذلك سببا للطعن على شعره ، وتقبيح حسنه » ثم يضيف ذلك الناقد القديم هذا التعليق الاصيل المنصف الذي يحتج فيه على اصحاب الاعتراضات السطحية والملفقة على الشعر والشاعر فيقول « ... وما ظننت ان كفرا ينقص من شعر ولا ان ايمانا يزيد فيه » .

ولقد وقع ابو تمام فريسة لهجوم كل النقاد المتعصبين الذين يمكن ببساطة ان نصفهم بالرجعية الفكرية والادبية الا ان الكثير منهم كانوا اهل لغة ونحو مثل «ابن الاعرابي » . ولكن ابا تمام لم يعبأ بأصواتهم غير العادلة ولا بذوقهم الفاسد . ولا شك ان الزمن قد نصر ابا تمام الفنان المبدع صاحب الخيال الجرىء المنطلق على النحاة واللغويين من دعاة الرجعية الادبية ... الجامدين المتحجرين ... هؤلاء الذين كان عجزهم احيانا عن محاربة الجديد في شعر أبى تمام يدعوهم الى أتهامه في دينه ... كما تفعل الرجعيه الادبيه المعاصره حينما تتهم الشعراء الجدد بانهم شيوعيون وما الى ذلك من التهم التي تهدف الى التضليل والشوشرة .

وهكذا استطاع ابو تمام أن يصمد امام الرجعية الادبيه ويحقق نصرا واضحا بارزا لقضية التجديد الادبي بلا تحفظ ولا خوف ولا رجعة الى الذوق القديم او الفكر القديم . وموقف ابى تمام درس لنا ولضمائرنا الادبيه المعاصره ... انه يدعونا الى مناصره الجديد الاصيل بقوة وبلا خوف او تردد ادبي . واحيرا فاود ان أقف وقفه سريعة مع ايمان ابى تمام بالعلم ، فلقد حفلت قصيدته المشهوره عن« فتح عموريه» وهي القصيدة التي اصبح مطلعها على لسان الكثيرين :

السيف أصدق انباء من الكتب
في حده الحد بين الجد واللعب

... في هذه القصيدة يشن ابو تمام حملة عنيفة على « المنجمين » ولم اقرا في الشعر العربي القديم دفاعا عن العلم وارادة الانسان مثلما قرات في هذه القصيده عن ابي تمام ... ان للمامه هنا تمثل ثوره حقيقيه على الخرافه والاوهام وهما عنتان رئيسيتان من علل الانسان العربي منذ العصور القديمه ... كما ان موقف ابى تمام في هذه القصيدة هو موقف الدفاع الاصيل عن العقل الانساني والاراده الانسانية والدفاع عن مسئولية البشر عن مواقفهم وتصرفاتهم المختلفة .

السيف اصدق انباء من الكتب
في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في
متونهن جلاء الشك والريب
والعلم في شهب الارماح لامعة
بين الخميسين لا في السبعة الشهب
اين الرواية بل اين النجوم وما
صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
تخرصا واحاديثا ملفقة
ليست بنبع اذا عدت ولا عذب

وبقية القصيدة تفيض بهذه الروح العميقة في الدفاع الصادق عن العقل والارادة البشرية ومسئولية الانسان ضد الخرافة والوهم والتخلي عن المسئولية والارادة البشرية ... ولعل هذا الموقف هو واحد من أصدق مواقف ابى تمام واكثرها صدقا بالنسبة للمجتمع العربي المعاصر وموقفه من الحياة

تحية لابي تمام في ذكراه .

ولعلنا مرة اخرى نسمع صوت ابى تمام ونصغي اليه بامانة وعمق .

القاهرة — **رجاء النقاش**